قصر من القش

ويلتقي الباشا بلاظ بك كعادتهما القديمة بعد طول توقف لأسباب عديدة، ويستعيد الباشا همته ونشاطه الذي افتقده لاظ منذ فترة ليست بالقصيرة، ويشربان القهوة ويستمع إلى أفكار الباشا الجديدة دائمًا بالنسبة له، وكأن لقاء الباشا به في كل مرة يأذن بميلاد فكرة مشروع جديد، وكان لاظ في شدة الشوق لسماع ما سيقوله الباشا خاصةً هذه المرة. ويقول الباشا:

– لابد لنا يا لاظ من ضم السودان لمصر، فهما كيان واحد لا يقبل التجزئة، ولابد لدولتنا يومًا أن تمتد من منبع النيل إلى مصبه.

– صدقت يا أفندينا، ولقد سمعت الناس تتناقل الأخبار عن وجود كثيرٍ من مناجم الذهب والماس في أصقاع السودان، وخاصة في منطقة هناك تسمى سنار كما يقولون، وما أحوجنا لهذه الأموال!

– ليس هذا فقط سبب تفكيرنا في السودان يا لاظ بك، ولكن هناك عديدٌ من الأسباب.

– مثل ماذا يا أفندينا؟

وأخذ محمد علي يوضح الأسباب التي تجعله يريد فتح السودان، ومنها رغبته في تجنيد السودانيين في الجيش المصري، لِمَا اشتهر به الجنود السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء، ثم رغبته في التخلص

من الفرق الباقية من عسكر الأرناؤوط، وغيرهم من الجنود غير النظامية ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب، وعادوا إلى مصر وظلوا على ما جُبِلوا عليه من النزوع للعصيان والتمرد والإخلال بالنظام، فرأى محمد علي تخلصًا منهم أن يجردهم على السودان، وخاصة لأنه شرع وقتئذ في تأسيس الجيش المصري النظامي، ومن أغراضه أيضًا القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا لاجئين في إقليم دُنقلة، وهم على ما بلغوه من الضعف كانوا مصدر قلق لمحمد علي، فاعتزم القضاء عليهم لكي لا يستردوا قوتهم يومًا ما ويزحفوا على مصر، وكان يرمي كذلك إلى توسيع معاملاته التجارية مستغلًا موانئ السودان.

وقبل أن يأمر الباشا بالزحف إلى السودان، ذهب بنفسه إلى حدود مصر العليا في سبتمبر ١٨١٩ يصحبه حسن باشا قائد الجنود الأرناؤوط، ومحمد بك لاظ أوغلي بالطبع، ووصل إلى ما وراء شلال أسوان ليرتاد تلك الجهات، ويرتب مواقع جنوده ويرسم خطط الزحف، ثم عاد إلى العاصمة ليعد معدات الحملة. ويقرر الباشا أن يكون ابنه الثالث إسماعيل هو قائد هذه الحملة، ويتحرك الجيش بالفعل بقيادته، إذ ينحدر المشاة بالسفن في النيل والفرسان برًا، كما أنفذ الباشا جيشًا آخر بقيادة صهره الثاني محمد بك الدفتردار لفتح كردفان، فكان مجموع الجيشين حوالي عشرة آلاف مقاتل، وصحب الحملة ثلاثة من العلماء كانت مهمتهم دعوة السودانيين إلى الدخول في الطاعة، والاعتراف بسلطة الحكومة المصرية حقنًا للدماء، كما

صاحب الحملة أيضًا العالم الفرنسي المسيو فردريك كايو، بقصد الاكتشاف والبحث عن مناجم الذهب. ويتابع الباشا مع لاظ بك أخبار الحملة على السودان في اهتمام بالغ، ويلاحظ لاظ قلق الباشا الذي نادرًا ما ينتابه فيقول:

– إن هذه الحملة يا أفندينا، ستكون أيسر كثيرًا من حملة الحجاز؛ فلا يمكن المقارنة بين ما سيلاقيه جيشنا من مقاومة هناك، وبين ما لاقاه في الحرب الوهابية.

– إن ما يشغلني يا لاظ ليس المقاومة فقط، بل الأمراض والأوبئة المنتشرة هناك والتي قد تؤثر على زحف الجيش.

وكما توقع الباشا، لقد كان أخطر ما واجه الجيش هو انتشار الأمراض بين الجنود، حتى إن إبراهيم باشا الذي سافر لنجدة أخيه في أحد مراحل القتال، أُصيب بالدوسنتاريا وعاد إلى مصر ليتعافى، بعد أن مَدَّ أخاه بما يحتاجه في تلك المرحلة، وكان قلة عدد الأطباء المصاحبين للحملة، وقلة المستلزمات الطبية من أكثر الأشياء التي أثرت على عدم السيطرة على الأمراض بشكل مناسب، وقد كان هذا من أهم الأسباب التي جعلت الباشا يفكر جديًّا في النهوض بالطب في مصر من أجل جيوشه في المقام الأول. واستطاع إسماعيل تحقيق عديد من الفتوحات والانتصارات في السودان، وأسس حكومة لإدارة الأمور هناك. وبينما كان في سنار يدبر أمر

الحكومة التي أسسها، بعد أن أرسل أفواجًا من الأسرى السودانيين يصحبهم رهط من الجنود إلى أسوان؛ لتجنيدهم في الجيش المصري النظامي الذي كان محمد علي جادًا في تأسيسه، واستعد هو أيضًا للعودة إلى مصر، وخلال ذلك جاءه عابدين بك رئيس أركان جيشه، وهو في حالة قلق وقال:

– عفوا يا سيدي، فهناك أخبار وصلت إليَّ للتو أن أهالي حلفاية وشندي وما حولهما ثاروا في وجه رجالنا.

– هل عرفت سبب ذلك؟

– أجل يا سيدي، سلوكيات جنودنا الأرناؤوط هي السبب في هياج الأهالي..

– فماذا فعل أهالي حلفاية وشندي يا عابدين بك؟

– مع الأسف يا سيدي، لقد هجموا على قوافل الأرقاء السودانيين المتجهة إلى مصر وانتزعوهم من أيدي الجنود الموكلين بهم، ورجعوا بهم إلى شندي.

فقام إسماعيل من فوره وتوجه بالجيش إلى شندي، وكان الملك نمر ملك شندي هو المدبر لهذه الثورة، وبمجرد وصول إسماعيل أمر بإحضار الملك نمر أمامه، فلما مَثُل بين يديه أخذ يقرعه ويُسرف في تأنيبه، ثم تمادى فلطمه على وجهه بما كان في يديه، فلم يُجِب الملك على هذه الإهانة البالغة،

ولكنه أسرّها في نفسه وعزم أن يغسلها بانتقام ذريع. أما إسماعيل باشا فقد عفا عنه مقابل غرامة مالية جسيمة يوفيها في خمسة أيام وألف من الرقيق، وأظهر الملك نمر الإذعان وقَبِل أن يتحمل الغرامة، ثم دعا إسماعيل باشا وبطانته إلى وليمة في قصره بشندي، وكان من القش، فأجابوا الدعوة وذهبوا إلى القصر واتخذوا مجلسهم فيه، ورحب بهم الملك ترحيبًا عظيمًا، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر بحجة العلف لخيل الباشا، ولم يُدرك الضيوف أن ثمة مؤامرة رهيبة تُدَبّر لهم، فلما فرغوا من طعامهم أخذوا يتأهبون لمغادرة المكان، فإذا بأعوان الملك يشعلون النار في أكوام الحطب والقش المحيطة بالقصر، فاحترق القصر وتحول إلى شعلة من الجحيم، ومات إسماعيل باشا وكل من كان معه بالقصر. ولما وصل نبأ هذه الكارثة لمحمد بك الدفتردار في كردفان، توجه إلى شندي ليثأر لصهره، ونكّل بأهلها أشد التنكيل، وقتل الآلاف منهم، وسبى من النساء والصبيان آلاف أخرى أرسلها إلى مصر، وتعقب الملك نمر لكنه لم يدركه لفراره إلى حدود الحبشة، فلما بلغ الخبر محمد علي باشا حزن حزنًا شديدًا، على أنه تلقى المصيبة بالجلد والصبر واعتزم المضي في سبيله.